ثم يقول تعالى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف] لأنه سبحانه القادر دائماً على إخراج الشيء إلى ضدّه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون]

فقد اقتدر سبحانه على الإيجاد ، واقتدر على الإعدام ، فلا تنفكّ عنه صفة القدرة أبداً ، أحيا وأمات ، وأعزّ وأذلّ ، وقبض وبسط ، وضرّ ونفع ..

ولما كان الكلام السابق عن صاحب الجنة الذى اغترّ بماله وولده فناسب الحديث عن المال والولد ، فقال تعالى :

﴿ الْمَالُ(١) وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

تلك هى العناصر الأساسية فى فتنة الناس فى الدنيا : المال والبنون ، لكن لماذا قدّم المال ؟ أهو أغلى عند الناس من البنين ؟ نقول : قدّم الحق سبحانه المال على البنين ، ليس لأنه أعزّ أو أغلى ؛ إنما لأن المال عام فى المخاطب على خلاف البنين ، فكلُّ إنسان لديه المال وإنْ قلّ ، أما البنون فهذه خصوصية ، ومن الناس مَنْ حُرِم منها .

كما أن البنين لا تأتى إلا بالمال ؛ لأنه يحتاج إلى الزواج والنفقة لكى يتناسل ويُنجب ، إذن : كل واحد له مال ، وليس لكل واحد

---

(١) المال : ما ملكته من جميع الأشياء . قال ابن الأثير : المال فى الأصل ما يُملك من الذهب والفضة ، ثم أطلق على كل ما يُقتنى ويُملك من الأعيان ، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل لأنها كانت أكثر أموالهم . [لسان العرب ـ مادة : مول] .

بنون ، والحكم هنا قضية عامة ، وهى : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..﴿٤٦﴾﴾ [الكهف]

كلمة (زِينَةُ) أى : ليست من ضروريات الحياة ، فهو مجرد شكل وزخرف ؛ لأن المؤمن الراضى بما قُسِمَ له يعيش حياته سعيداً بدون مال ، وبدون أولاد ؛ لأن الإنسان قد يشقَى بماله ، أو يشقى بولده ، لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أن يُرزقَ هذا المال أو هذا الولد .

وقد باتت مسألة الإنجاب عُقْدة ومشكلة عند كثير من الناس ، فترى الرجل كَدِراً مهموماً ؛ لأنه يريد الولد ليكون له عِزْوة وعزّة ، وربما يُرزَق الولد ويرى الذُّلّ على يديه ، وكم من المشاكل تُثَار فى البيوت ؛ لأن الزوجة لا تنجب .

ولو أيقن الناس أن الإيجاد من الله نعمة ، وأن السَّلْب من الله أيضاً نعمة لاستراح الجميع ، ألم نقرأ قول الله تعالى :

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى]

إذن : فالعُقْم فى ذاته نعمة وهبة من الله لو قبلها الإنسان من ربه لَعوَّضه الله عن عُقْمه بأنْ يجعل كل الأبناء أبناءه ، ينظرون إليه ويعاملونه كأنه أبٌ لهم ، فيذوق من خلالهم لذَّة الأبناء دون أن يتعب فى تربية أحد ، أو يحمل هَمَّ أحد .

وكذلك ، الذى يتكدر لأن الله رزقه بالبنات دون البنين ، ويكون كالذى قال الله فيه : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل]

إنه يريد الولد ليكون عـزْوة وعـزّة . ونسى أن عزة المـؤمن بالله لا بغيـره ، ونقول :والله لو اسـتقبلت الـبنت بالفرح والرضا عـلى أنها هِبَـة من الله لكانتْ سببـاً فى أن يأتى لها زوج أبرّ بك من ولدك ، ثم قد تأتى هى لك بالولد الذى يكون أعزّ عندك من ولدك .

إذن : المـال والبنون من زينة الحـيـاة وزخـرفـهـا ، وليـسـا من الضـروريات ، وقد حـدد لنا النبى ﷺ الدنيـا ، فـقال : « من أصـبح مُعَـافىً فى بدنه ، آمناً فى سِـرْبه ـ أى : لا يهدد أمنه أحـد ـ وعنده قُوت يومه ، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها »(١)

فما زاد عـن ذلك فهو من الزينة ، فالإنســان – إذن – يستطيع أن يعـيش دون مال أو ولد ، يعـيش بقـيم تعطى له الخـير ، ورضـاً يرضيه عن خالقه تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف]

لأن المـال والبـنين لن يدخـلا مـعـك القـبـر ، ولن يمـنعـاك من العذاب ، ولن ينفعك إلا الباقيـات الصـالحات . والنبى ﷺ حينما أُهديَتْ إليه شاة ، وكانت السيدة عائشة – رضى الله عنها ـ تعرف أن رسول الله يحب من الشاة الكتف(٢) ؛ لأنه لَحْم رقيق خـفيف ؛ لذلك احـتفظتْ

(١) أخرجـه الترمـذى فى سننه (٢٣٤٦) ، وابن ماجـه فى سننه (٤١٤١) والحمـيدى فى مسنده (٤٣٩) من حديث عبـيد الله بـن محصن الأنصـارى وكانت له صـحـبة . قـال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

(٢) قال ابن عباس : « كان أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف » أخـرجه أبو الشيخ الأصبهانى فى « أخلاق النبى » (ص ٢٠١) وأورده السيوطى فى « الجامع الصغير » (٥/٨٥) وعزاه لأبى نعـيم عن ابن عبـاس ، وأشار إليـه بالضعف ، وأخـرجه البـخارى (٤٧١٢) بنحـوه عن أبى هريرة قال : « أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه » .

لرسول الله بالكتف وتصدَّقت بالباقى ، فلما جاء ﷺ قال : « ماذا صنعتِ فى الشاة » ؟ قالت : ذهبتْ كلها إلا كتفها ، فضحك ﷺ وقال : « بل بقيت كلها إلا كتفها »[1].

وفى حديث آخر قال ﷺ : « هل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليْتَ ، أو تصدَّقْتَ فأبقيْتَ »[2]

وهذا معنى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف]

والسؤال الذى يتبادر إلى الذِّهْن الآن : إذا لم يكُنْ المال والبنون يمثلان ضرورة من ضروريات الحياة ، فما الضروريات فى الحياة إذن ؟ الضروريات فى الحياة هى كُلُّ ما يجعل الدنيا مزرعة للآخرة ، ووسيلة لحياة باقية دائمة ناعمة مسعدة ، لا تنتهى أنت من النعيم فتتركه ، ولا ينتهى النعيم منك فيتركك ، إنه نعيم الجنة .

الضروريات - إذن - هى الدين ومنهج الله والقِيَم التى تُنظم حركة الحياة على وَفْق ما أراد الله من خلق الحياة .

ومعنى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف] مادام قال (وَالْبَاقِيَاتُ) فمعنى هذا أن ما قبلها لم يكُنْ من الباقيات بل هو زائل بزوال الدنيا ، ثم وصفها بالصالحات ليفرق بينها وبين الباقيات السيئات التى يخلدون بها فى النار .

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف] خير عند مَنْ ؟ لأن كل مضاف إليه يأتى على قوة المضاف إليه ، فخَيْرك غير خير مَنْ هو أغنى منك ، غير خير الحاكم ، فما بالك بخير عند الله ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥٠/٦) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . قال الترمذى : « حديث صحيح » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٤/٤ ، ٢٦) ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

﴿.. خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ۝٤٦﴾ [الكهف]

والأمل : ما يتطلع إليه الإنسان مما لم تكُنْ به حالته ، فإنْ كان عنده خير تطلَّع إلى أعلى منه ، فالأمل الأعلى عند الله تبارك وتعالى ، كُلُّ هذا يُبيِّن لنا أن هذه الدنيا زائلة ، وأننا ذاهبون إلى يوم بَاقٍ ؛ لذلك أردف الحق سبحانه بعد الباقيات الصالحات ما يناسبها ، فقال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً[1] وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝٤٧ ﴾

أي : اذكر جيداً يوم نُسيِّر الجبال وتنتهي هذه الدنيا ، واعمل الباقيات الصالحات لأننا سنُسيِّر الجبال التي تراها ثابتة راسخة تتوارث الأجيال حجمها وجِرْمها ، وقوتها وصلابتها ، وهي باقية على حالها .

ومعنى تسيير الجبال : إزالتها عن أماكنها ، كما قال في آية أخرى : ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ]

وقال في آية أخرى ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ [التكوير] وقال : ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾ [المرسلات] وقال : ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ[2] ۝٩﴾ [المعارج]

ونلحظ أن الحق سبحانه ذكر أقوى مظهر ثابت في الحياة الدنيا ، وإلا ففي الأرض أشياء أخرى قوية وثابتة كالعمائر ناطحات السحاب،

---

(١) أي : ترى الأرض ظاهرة ليس عليها ما يسترها من مساكن أو أشجار أو غيرها . [القاموس القويم ١/٦٣] .

(٢) العهن : الصوف المصبوغ بأي لون أو بألوان مختلفة . [القاموس القويم ٢/٤٠] .

والشجر الكبير الضخم المعمّر وغيرها كثير . فإذا كان الحق سبحانه سينسف هذه للجبال ويُزيلها عن أماكنها ، فغيرها مما على وجه الأرض زائل من باب أَوْلَى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف]

الأرض : كُلّ ما أقلّك[1] من هذه البسيطة التى نعيش عليها ، وكل ما يعلوك ويُظلّك فهو سماء ، ومعنى : (بَارِزَةً) البَرَازُ : هو الفضاء ، أى : وترى الأرض فضاءً خالية مما كان عليها من أشكال الجبال والمبانى والأشجار ، حتى البحر الذى يغطى جزءاً كبيراً من الأرض .

كل هذه الأشكال ذهبتْ لا وجودَ لها ، فكأن الأرض بَرزَتْ بعد أنْ كانت مختبئة : بعضها تحت الجبال ، وبعضها تحت الأشجار ، وبعضها تحت المبانى ، وبعضها تحت الماء ، فأصبحتْ فضاء واسعاً ، ليس فيه مَعْلَمٌ لشىء .

ومن ذلك ما نُسمّيه نحن المبارزة ، فنرى الفتوة يقول للآخر (اطلع لى بره) أى : فى مكان خال حتى لا يجد شيئاً يحتمى به ، أو حائطاً مثلاً يستند عليه ، وبرز فلان لفلان وبارزه أى : صارعه .

﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف] أى : جمعناهم ليوم الحساب ؛ لأنهم فارقوا الدنيا على مراحل من لَدُن آدم عليه السلام ، والموت يحصد الأرواح ، وقد جاء اليوم الذى يُجمع فيه هؤلاء .

﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف] أي : لم نترك منهم واحداً ، الكلُّ معروض على الله ، وكلمة ﴿ نُغَادِرْ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف] ومادة (غدر) تؤدى جميعها معنى الترْك ، فالغدر مثلاً تَرْك الوفاء وخيانة الأمانة ،

---

(١) أقلّ الشىء واستقلّه : حمله ورفعه . فالأرض تُقلّنا لأنها تحملنا على ظهرها . [لسان العرب ـ مادة : قلل] .

حتى غدير وهو جدول الماء الصغير سُمِّى غديراً ؛ لأن المطر حينما ينزل على الأرض يذهب ويترك شيئاً قليلاً فى المواطىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الكهف] العرض : أن يستقبل العارض المعروضَ استقبالاً مُنظَّماً يدلّ على كُلّ هيئاته ، كما يستعرض القائد الجنود فى العرض العسكرى مثلاً ، فيرى كل واحد من جنوده (صفّاً) أى : صُفوفاً منتظمة ، حتى الملائكة تأتى صُفوفاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفجر]

أى : أنها عملية مُنظمة لا يستطيع فيها أحد التخفى ، ولن يكون لأحد منها مفَرٌّ ، وهى صفوف متداخلة بطريقة لا يُخفِى فيها صَفٌّ الصفَّ الذى يليه ، فالجميع واضح بكلّ أحواله .

وفى الحديث عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : حدثنا رسول الله ﷺ فقال : « يَحشر الله الخَلْق ثم ينادى : يا عبادى احضروا حُجتكم ويسِّروا جوابكم ، فإنكم مجموعون مُحاسَبُون مَسئولون ، يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب »(١) .

ولك أنْ تتصوَّر المعاناة والألم الذى يجده مَنْ يقف على أطراف أنامل قدميْه ؛ لأن ثقل الجسم يُوزَّع على القدمين فى حال الوقوف ، وعلى

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٤١٤٨) وعزاه لأبى القاسم عبد الرحمن بن منده فى كتاب التوحيد من حديث معاذ بن جبل ، وكذا السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٠٠) .

المقعدة فى حال الجلوس ، وعلى الجسم كله فى حال النوم ، وهكذا يخفّ ثقل الجسم حسب الحالة التى هو عليها ، فإنْ تركّز الثقل كله على أطراف أنامل القدمين ، فلا شكّ أنه وَضْع مؤلم وشاقّ ، يصعُب على الناس ، حتى إنهم ليتمنون الانصراف ولو إلى النار .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الكهف]

أى : على الحالة التى نزلتَ عليها من بطن أمك عرياناً ، لا تملك شيئاً حتى ما يستر عورتك ، وقد فُصِّل هذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ[1] وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى :﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الكهف]

والخطاب هنا مُوجَّه للكفار الذين أنكروا البعث والحساب ﴿ زَعَمْتُمْ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الكهف] والزعْم مطيّة الكذب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ
وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً
وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا[2] وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا
وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

---

(١) خوّله كذا : ملّكه إياه متفضلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/ ٢١٤] .

(٢) الإحصاء : العد والحفظ . وفى أسماء الله تعالى : المحصى ، هو الذى أحصى كل شىء بعلمه فلا يفوته دقيق منها ولا جليل . وأحصى الشىء : أحاط به . [لسان العرب ـ مادة : حصى] .

قوله تعالى : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف] أى : وضعته الملائكة بأمر من الله تعالى ، فيعطون كل واحد كتابه ، فهى - إذن - صور متعددة ، فمَنْ أخذ كتابه بيمينه فرح وقال :

﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة] يعرضه على ناس ، وهو فخور بما فيه ؛ لأنه كتاب مُشرِّف ليس فيه ما يُخجل ؛ لذلك يتباهى به ويدعو الناس إلى قراءته ، فهو كالتلميذ الذى حصل على درجات عالية ، فطار بها ليعرضها ويذيعها .

وهذا بخلاف مَنْ أوتى كتابه بشماله فإنه يقول : ﴿لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة]

إنه الخزى والانكسار والندم على صحيفة مُخْجلة .

﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف] أى : خائفين يرتعدون ، والحق سبحانه وتعالى يصور لنا حالة الخوف هذه ، ليُفزع عباده ويُحذِّرهم ويُضخِّم لهم العقوبة ، وهم ما يزالون فى وقت التدارك والتعديل من السلوك ، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده .

فحالتهم الأولى الإشفاق ، وهو عملية هبوط القلب ولجلجته ، ثم يأتى نزوع القول : ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف] يا : أداة للنداء ، كأنهم يقولون : يا حسرتنا يا هلاكنا ، هذا أوانك فاحضرى .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة ابنى آدم - عليه السلام - لما قتل قابيل هابيل ، وكانت أول حادثة قتل ، وأول ميت فى ذرية آدم ؛ لذلك بعث الله له غراباً يُعلِّمه كيف يدفن أخاه ، فقال : ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي .. ﴿٣١﴾﴾ [المائدة]

﴿ يَـٰوَيْلَتَىٰ (٣١) ﴾ [المائدة] يا هلاكى كان يتحسَّر على ما أصبح فيه ، وأن الغراب أعقل منه ، وأكثر منه خبرة ؛ لكى لا نظلم هذه المخلوقات ونقول : إنها بهائم لا تَفهم ، والحقيقة : ليتنا مثلهم .

قوله تعالى : ﴿ مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا (٤٩) ﴾ [الكهف] أى : لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدَّها وحسبها ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا (٤٩) ﴾ [الكهف] فكل ما فعلوه مُسجَّل مُسطَّر فى كُتبهم ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ [الكهف] لأنه سبحانه وتعالى عادل لا يؤاخذهم إلا بما عملوه .

ثم يقول الله سبحانه :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا (٥٠) ﴾

تكررتْ قصة سجود الملائكة لآدم ـ عليه السلام ـ كثيراً فى القرآن الكريم ، وفى كل مرة تُعطينا الآياتُ لقطةً معينة ، والحق سبحانه فى هذه الآية يقول لنا : يجب عليكم أنْ تتذكروا جيداً عداوة إبليس لأبيكم آدم ، وتذكَّروا جيداً أنه أخذ العهد على نفسه أمام الله تعالى أنْ يُغويكم أجمعين ، فكان يجب عليكم أن تتنبهوا لهذا العداوة ، فإذا حدَّثكم بشىء فاذكروا عداوته لكم .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يُحذِّرنا من إبليس فإنه يُربِّى فينا المناعة التى نُقاومه بها ، والمناعة أنْ تأتىَ بالشىء الذى يضرُّ مستقبلاً حين يفاجئك وتضعـ ـه فى الجسم فى صورة مكروب خامد ، وهذا هو التطعيم الذى يُعوِّد الجسم على مدافعة المرض وتغلُّب عليه إذا أصابه .

فكذلك الحق سبحانه يعطينا المناعة ضد إبليس ، ويُذكِّرنا ما كان

منه لأبينا آدم واستكباره عن السجود له ، وأن نذكر دائماً قوله : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ[1] ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) ﴾ [الإسراء]

فانتبهوا ما دُمنا سنُسيِّر الجبال ، ونُسوِّى الأرض ، ونحصر لكلٍّ كتابه ، فاحذروا أنْ تقفوا موقفاً حرجاً يوم القيامة ، ثم تُفَاجأوا بكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، وها أنا أُذكِّركم من الآن فى وقت السَّعة والتدارك، فحاولوا التوبة إلى الله ، وأنْ تصلحوا ما بينكم وبين ربكم .

والأمر هنا جاء للملائكة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] لأنهم أشرف المخلوقات ، حيث لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤْمَرُون . وحين يأمر الله تعالى الملائكة الذين هذه صفاتهم بالسجود لآدم ، فهذا يعنى الخضوع ، وأن هذا هو الخليفة الذى آمُركم أنْ تكونوا فى خدمته .

لذلك سمَّاهم : المدبِّرات أمراً ، وقال تعالى عنهم : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[2] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الرعد] فكأن مهمة هؤلاء الملائكة أن يكونوا مع البشر وفى خدمتهم .

فإذا كان الحق سبحانه قد جنَّد هؤلاء الملائكة وهم أشرفُ المخلوقات لخدمة الإنسان ، وأمرهم بالسجود له إعلاناً للخضوع للإنسان ، فمن باب أَوْلى أن يخضع له الكون كله بسمائه وأرضه ، وأن يجعلَه فى خدمته ، إنما ذكر أشرف المخلوقات لينسحب الحكم على مَنْ دونهم .

---

(١) احتنك فلاناً : استولى عليه واستماله إليه فلا يخرج عن طوعه على المجاز كأنه وضعه فى حنكه فلا يفلت منه ، والمعنى : أى لأملكن أمرهم وأستولى عليهم فلا يعصون أمرى . [القاموس القويم ١/١٧٥] .

(٢) أى : لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ، فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار . [تفسير القرطبى ٥/٣٦٢٦] .

وقلنا : إن العلماء اختلفوا كثيراً على ماهية إبليس : أهو من الجن أم من الملائكة ، وقد قطعت هذه الآية هذا الخلاف وحسَمَتْه ، فقال تعالى : ﴿ إلاَّ إبْليسَ كَانَ منَ الْجنِّ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] وطالما جاء القرآن بالنص الصريح الذى يُوضّح جنسيته ، فليس لأحد أن يقول : إنه من الملائكة .

وما دام كان من الجن ، وهم جنس مختار فى أنْ يفعل أو لا يفعل ، فقد اختار ألاَّ يفعل ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّه .. (٥٠) ﴾ [الكهف] أى : رجع إلى أصله ، وخرج عن الأمر .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] فهذا أمر عجيب ، فكيف بعد ما حدث منه تجعلونه ولياً من دون الله الذى خلقكم ورزقكم ، فكان أوْلَى بهذه الولاية .

و ﴿ وَذُرِّيَّتَهُ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] تدل على تناسل إبليس ، وأن له أولاداً ، وأنهم يتزاوجون ، ويمكن أن نقول : ذريته : كل مَنْ كان على طريقته فى الضلال والإغواء ، ولو كان من الإنس ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ[1] الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢) ﴾ [الأنعام]

﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾ [الكهف] أى : بئس البدل أن تتخذوا إبليس الذى أبى واستكبر أنْ يسجدَ لأبيكم ولياً ، وتتركوا ولاية الله الذى أمر الملائكة أنْ تسجدَ لأبيكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾

(١) الزخرف : الزينة . وزخرف القول : حُسْنُه بتزيين الكذب . [لسان العرب ـ مادة : زخرف] .

إن هذا الشيطان الذى واليتموه من دون الله ، وأعطيتموه الميْزة ، واستمعتم إليه ما أشهدتهم خَلْق السموات والأرض مجرد المشاهدة ، لم يحضروها لأن خَلْق السموات والأرض كان قبل خَلْقهم ، وكذلك ما شَهِدوا خَلْق أنفسهم ؛ لأنهم ساعة خلقتهم لم يكونوا موجودين ، إنهم لم يشهدوا شيئاً من ذلك لكى يخبروكم .

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف] أى : مساعدين ومعاونين ومساندين ، فما أشهدتهم الخَلْق وما عاونونى فيه .

والعَضُد : هو القوة التى تُسعفك وتسندك ، وهو مأخوذ من عَضُد الإنسان ، حيث يزاول أغلب أعماله بيديه ، وحين يزاول أعماله بيديه تتحرك فيه مجموعة من الأعضاء قَبْضاً وبَسْطاً واتجاهاً يميناً وشمالاً ، وأعلى وأسفل ، وكُلُّ هذه الحركات لا بُدَّ لها من مُنظِّم أو موتور هو العضد ، وفى حركة اليد ودقتها فى أداء مهمتها آياتٌ عُظْمى تدلُّ على دقَّة الصَّنْعة .

وحينما صنع البشر ما يشبه الذراع واليد البشرية من الآلات الحديثة ، تجد سائق البلدوزر مثلاً يقوم بعدة حركات لكى يُحرِّك هذه الآلة ، أما أنت فتحرِّك يدك كما شئْتَ دون أن تعرف ماذا يحدث ؟ وكيف تتم لك هذه الحركة بمجرد أن تُفكِّر فيها دون جهد منك أو تدبير ؟

فكل أجزائك مُسخَّرة لإرادتك ، فإنْ أردتَ القيام مثلاً قمتَ على الفور ؛ لذلك إياك أنْ تظن أنك خَلْق ميكانيكى ، بل أنت صَنْعة ربانية بعيدة عن ميكانيكا الآلات ، بدليل أنه إذا أراد الخالق سبحانه أن يُوقف جزءاً منك أمر المخ أنْ يقطعَ صِلَته به ، فيحدث الشلل التام ، ولا تستطيع أنت دَفْعَه أو إصلاحه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى قصة موسى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥) ﴾ [القصص] أى : نُقوِّيك ونُعطيك السَّنَد والعَوْن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) ﴾

يعنى : واذْكر يا محمد ، ولتذْكُرْ معك أمتك هذا اليوم ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ .. (٥٢) ﴾ [الكهف] يقول الحق سبحانه للكفار : ادعوا شركائى الذين اتخذتموهم من دونى . وزعمتم : أى : كذبتم فى ادعائكم أنهم آلهة ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. (٥٢) ﴾ [الكهف]

وهذا من سماجتهم وتبجُّحهم وسوء أدبهم مع الحق سبحانه ، فكان عليهم أنْ يخجلوا من الله ، ويعودوا إلى الحق ، ويعترفوا بما كذَّبوه ، لكنهم تمادَوْا ﴿ فَدَعَوْهُمْ .. (٥٢) ﴾ [الكهف] ويجوز أن من الشركاء أناساً دون التكليف ، وأناساً فوق التكليف ، فمثلاً منهم مَنْ قالوا : عيسى . ومنهم مَنْ قالوا : العزير ، وهذا باطل ، وهل استجابوا لهم ؟

ومنهم مَن اتخذوا آلهة أخرى ، كالشمس والقمر والأصنام وغيرها ، ومنهم مَنْ عبد ناساً مثلهم وأطاعوهم ، وهؤلاء كانوا موجودين معهم ، ويصح أنهم دَعَوْهم ونادوهم : تعالوا ، جادلوا عنَّا ، وأخرجونا مما نحن فيه ، لقد عبدناكم وكنا طَوْعَ أمركم ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر]

ولكن ، أنَّى لهم ما يريدون ؟ فقد تقطعتْ بينهم الصلات ، وانقطعت

حجتهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. (٥٢)﴾ [الكهف] ثم جعل الحق سبحانه بين الداعي والمدعو وادياً سحيقاً ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢)﴾ [الكهف]

والمَوْبق : المكان الذى يحصل فيه الهلاك ، وهو وَاد من أودية جهنم يهلكون فيه جميعاً ، أو : أن بين الداعى والمدعو مكَاناً مُهْلكاً ، فلا الداعى يستطيع أنْ يلوذَ بالمدعو ، ولا المدعو يستطيع أنْ ينتصرَ للداعى ويُسعفه ، لأن بينهم منبعَ هلاك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤)﴾ [الشورى] يعنى : يهلكهن .

ومن العجيب أن تكون هذه أولَ إطاعة منهم لله تعالى ، فلما قال لهم : ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ (٥٢)﴾ [الكهف] استجابوا لهذا الأمر ، فى حين أنهم لم يطيعوا الأوامر الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)﴾

رأى : الرؤية : وقوع البصر على المرئىّ ، والرؤية هنا ممّن سيُعذّب فى النار ، وقد تكون الرؤية من النار التى ستعذبهم ؛ لأنها تراهم وتنتظرهم وتناديهم ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق]

أى : ها أنا ذا أنتظرهم ومستعدة لملاقاتهم ؟

والمجرمون : الذين ارتكبوا الجرائم ، وعلى رأسها الكفر بالله . إذن : فالرؤية هنا مُتبَادلة : المعذِّب والمعذَّب ، كلاهما يرى الآخر ويعرفه .

وقوله تعالى : ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف] الظن هنا يُراد منه اليقين . أى : أيقنوا أنهم واقعون فيها ، كما جاء فى قول الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [البقرة]

أى : يوقنون .

﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف] أى : فى حين أن بينهما مَوْبقاً ، وأيضاً لا يجدون مفراً يفرون منه ، أو ملجأ يلجؤون إليه ، أو مكاناً ينصرفون إليه بعيداً عن النار ، فالمَوْبِق موجود ، والمصْرِف مفقود .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

سبق أن تكلمنا عن تصريف الآيات ، وقلنا : إن التصريف معناه تحويل الشيء إلى أشياء متعددة ، كما يصرِّف الله الرياح مثلاً ، فلا تأتى من ناحية واحدة ، بل تأتى مرة من هنا ، ومرة من هناك ، كذلك صرَّف الله الأمثال . أى : أتى بأحوال متعددة وصُوَر شتى منها .

والحق سبحانه يضرب الأمثال كأنه يقرع بها آذان الناس لأمر قد يكون غائباً عنهم ، فيمثله بأمر واضح لهم مُحَسٍّ ليتفهموه تفهّماً دقيقاً .

وما دام أن الحق سبحانه صرَّف فى هذا القرآن من كل مثَل ، فلا عُذْر لمن لم يفهم ، فالقرآن قد جاء على وجوه شتّى ليُعلم الناس على اختلاف أفهامهم ومواهبهم ؛ لذلك ترى الأمى يسمعه فيأخذ منه على قدر فَهْمه ، والنصف مثقف يسمعه فيأخذ منه على قدر ثقافته ، والعالم الكبير يأخذ منه على قدر علمه ويجد فيه بُغْيته ، بل وأكثر

من ذلك ، فالمتخصص فى أىّ علم من العلوم يجد فى كتاب الله أدقّ التفاصيل ؛ لأن الحق سبحانه بيَّن فيه كل شىء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف] أى : كثير الخصومة والتنازع فى الرأى ، والجدل : هو المحاورة ومحاولة كل طرف أن يثبت صِدْق مذهبه وكلامه ، والجدل إما أن يكون بالباطل لتثبيت حجة الأهواء وتراوغ لتبرر مذهبك ولو خطأ ، وهذا هو الجَدل المعيب القائم على الأهواء . وإما أن يكون الجدل بالحق وهو الجدل البنّاء الذى يستهدف الوصول إلى الحقيقة ، وهذا بعيد كل البعد عن التحيّز للهوى أو الأغراض .

ولما تحدَّث القرآن الكريم عن الجدل قال تعالى : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت] وقال : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل]

والنبى ﷺ لما مرَّ على علىٍّ وفاطمة - رضى الله عنهما - ليوقظهما لصلاة الفجر ، وطرق عليهما الباب مرة بعد أخرى ، ويبدو أنهما كانا مستغرقيْن فى نوم عميق ، فنادى عليهما ﷺ « ألا تصلون ؟ »[1] فردَّ الإمام على قائلاً : يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله ، إن شاء أطلقها وإن شاء أمسكها ، فضحك النبى ﷺ وقال : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف]

لأن الإنسان له أهواء متعددة وخواطر متباينة ، ويحاول أنْ يُدلِّل على صحة أهوائه وخواطره بالحجة ، فيقارع الحق ويغالط ويراوغ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١/٧٧) ، ومسلم فى صحيحه (٢٠٦) كتاب صلاة المسافرين ، والبخارى فى صحيحه (٧٣٤٧) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .